ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

المرأة في خطاب النخب المغاربية خلال الفترة الاستعمارية الجزائر وتونس: من خلال أجوبة الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف

Women in the discourse of Maghreb elites during the colonial period Algeria and Tunisia: Through the answers of Emir Abdel Kader and the of Aby Diaf

الأستاذ الدكتور حنيفي هلايلي، جامعة سيدي بلعباس
hanifi_andalous@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/06/26 تاريخ القبول: 2020/07/16 تاريخ النشر: 2020/09/30

ملخص:

تساهم هذه الدراسة في رصد عديد الإشكاليات المقرونة بواقع المرأة المغاربية المسلمة خلال فترة الاحتلال الفرنسي ومدى اهتمام الاستشراق الفرنسي من قضايا المجتمع المغاربي والمرأة التي تشكل أحد حلقاته الرئيسية. إلى أي حد كانت أسئلة وانطباعات النخب الفرنسية منصفة لواقع المرأة الجزائرية والتونسية خلال الفترة الاستعمارية؟ هل وفقت النخب الجزائرية والتونسية في الرد على هذه الأسئلة؟ لقد وقع الاختيار على شخصيتين مغاربيتين خلال الفترة الاستعمارية هما: الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف، واللذين أجابا على أسئلة تصب في قالب واحد ،جاءت من مستعربين فرنسيين عاشا في الجزائر بعاصمة الأمير معسكر فترة من الزمن، أولهم كمبعوث

وقنصل فرنسي بمعسكر والثاني ككاتب للأمير حيث ادعى الإسلام وأصبح من مقربي وكاتب الأمير. لقد تركت هاتين الشخصيتين انطباعات عن الجزائر وقضايا المجتمع والإسلام، تمثلتا في : أوجين دوماس وليون روش.

كلمات المفتاحية: الجزائر؛ تونس؛ الأمير عبد القادر؛ ابن أبي الضياف؛ المجتمع المغاربي؛ المرأة.

Abstract: This study contributes to monitoring many problems, coupled with the reality of , Maghreb Muslim women during the period of French occupation and the extent of French orientalism, from the issues of Maghreban society and the woman who constitutes one of its main episodes. To what extent were the questions and impressions of the French elites fair to the reality of Algerian and Tunisian women during

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

the colonial period? Have the Algerian and Tunisian elites responded to these questions. ؟
Two Maghreb characters were chosen during the colonial period: Prince Abdel Kader and Ibn Aby Diaf, who responded to questions in one form, came from French Arabists who lived in Algeria in the capital of the Prince's Mascara for a period of time, the first as an envoy and a French consul in Mascara, and the second as a writer for the Emir, who converted to Islam and became a close associate and writer for the Emir. They left impressions on Algeria, society and Islam : Eugene Dumas and Leon Roche.
Keywords: Algeria, Tunisia, Emir Abdel Kader, Ibn Aby Diaf, Maghreb society, women..

تحاول هذه الدراسة رصد عديد الإشكاليات المقرونة بواقع المرأة المغاربية المسلمة خلال فترة الاحتلال الفرنسي وموقع اهتمامات الاستشراق الفرنسي من قضايا المجتمع المغاربي والمرأة التي تشكل أحد حلقاته الرئيسية. إلى أي حد كانت أسئلة
وانطباعات النخب الفرنسية منصفة لواقع المرأة الجزائرية والتونسية خلال الفترة الاستعمارية ؟ هل وفقت النخب الجزائرية والتونسية في الرد على هذه الأسئلة؟ أم اكتفت فقط بالتعقيب والتعليق وفق ما جاء في نصوص الشريعة الإسلامية. كان الجهل بالتقاليد والتعاليم الإسلامية قد أدى إلى تفسيرات عديدة لأحوال المرأة بشكل عام. كما تميزت الكتابات بالثنائية في الطرح منها من تأسف على حالها ومنهم من وصف شقاءها. انطلاقا من هذه الصورة عن المرأة جاءت عديد التساؤلات عن فهم طبيعة المرأة وكيفية معاملتها في المجتمع المغاربي خلال الفترة الاستعمارية.

لقد وقع الاختيار على شخصيتين مغاربيتين خلال الفترة الاستعمارية هما: الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف، واللذين أجابا على أسئلة تصب في قالب واحد ،جاءت من مستعربين فرنسيين عاشا في الجزائر بعاصمة الأمير معسكر ردحا من الزمن ،أولهم كمبعوث وقنصل فرنسي بمعسكر والثاني ككاتب للأمير حيث ادعى الإسلام وأصبح من مقربي الأمير. لقد ترك هؤلاء انطباعات عن الجزائر وقضايا المجتمع والإسلام، هاتين الشخصيتين هما: أوجين دوماس وليون روش.

شغلت قضية المرأة المغاربية حيزا كبيرا لدى النخب الفرنسيين من عسكريين وسياسيين ورجال الدين ومفكرين خلال الفترة الاستعمارية. كان ذلك انطلاقا من الأحكام التي أصدرها الفرنسيون على بعض الممارسات والتقاليد الإسلامية، مثل تعليم المرأة وتعدد الزوجات

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

والحجاب والميراث، وظهرت كتب فرنسية عديدة في هذا المجال بعضها كان متحيزا لقناعات دينية أوعرقية، وبعضها كان مبنيا على جهل بأسرار المجتمع المغاربي والتعاليم الدينية، وكل ذلك قد أثار ردود فعل لدى البعض، فانبرت بعض النخب من الجزائر وتونس لتوضيح الغامض وبيان الأوجه الشرعية والاجتماعية. أخذ الحديث عن المرأة في المجتمع المغاربي حيزا كبيرا في المناقشات والكتابات أثناء العهد الفرنسي.

أولا : صورة المرأة عند الأمير عبد القادر[1]

حري بنا أن نشير في هذا السياق أنه من أوائل الكتب الفرنسية التي اهتمت بالمرأة كتاب **دوماس**(DAUMAS) (المرأة العربية). [2]وقد أجاب **الأمير عبد القادر** سائله ***الجنرال دوماس***[3] أثناء وجوده في الأسر بفرنسا على مجموعة كبيرة من الأسئلة حول واقع المرأة الجزائرية [4]. لقد وردت الأسئلة والأجوبة في كتاب تحفه الزائر وهي عشرون سؤالا [5]، بين فيها

(1) يعتبر الأمير عبد القادر(1808-1883) من كبار رجال الدولة الجزائريين في التاريخ المعاصر، فهومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورائد مقاومتها ضد الاستعمار الفرنسي بين 1832 و1847. كما يعد أيضا من كبار رجال التصوف والشعر وعلماء الدين . وفوق كل ذلك كان داعية سلام وتآخي بين مختلف الأجناس والديانات وهوما فتح له باب صداقات وإعجاب كبار السياسيين في العالم زمنئذ .

(2) نشرت الأسئلة في المجلة الأفريقية، ينظر:

Daumas,E, La femme arabe, Rev. af., 56, 1912, p. v-viii et 1-155. وأيضا :

Daumas E, La Femme arabe, préface. D'Augustin Bernard, Alger, Adolph. Jourdan, 1912

(3) ولد أوجين دوماس بسويسرا سنة 1803، وتوفي بفرنسا سنة 1871 .دخل الجزائر سنة 1835 وتعلم العربية ثم أصبح قنصل فرنسا بعاصمة الأمير ما بين 1837-1839، كلفه الجنرال لا موريسيار بإدارة الشؤون العربية بعمالة وهران سنه 1841، ثم أسندت له مهام إدارة شؤون الجزائر وتنظيم المكاتب العربية في عهد المارشال بوجوسنة 1850، أصبح جنرالا سنة 1853 . أرسلته فرنسا إلى حصن لامالق(Lamalgue) سنة 1848 لمرافقة الأمير عبد القادر بطولون . موريليون (Mourillon). وهومستعرب فرنسي، وخلال إقامته بمعسكر سجل عديد الملاحظات عن حياة الأمير والجزائريين من حيث العادات والتقاليد.، وقد كلف أثناء تواجده بالحصن بالتحاور مع الأمير السجين، كما ترك رسائل نشرت بالمجلة الأفريقية. ينظر:

Reyniers (colonel), « Sept lettres inédites du colonel Daumas au colonel Rivet », In,R.A,n°,99, 1955, pp. .181-194

Daumas (E), Mœurs et coutumes de l'Algérie : tell-Kabylle- Sahara- librairie de L. Hachette et Cie, Paris .1853, 386 p

.Daumas (E), La Femme arabe ; préface. D'Augustin Bernard, Alger, Adolph. Jourdan, 1912

.Daumas (E), La vie arabe et la société musulmane, Librairie nouvelle, Paris, 1869

(4) حول حياة الأمير في فرنسا وظروف سجنه يراجع:

Belle Mare, Alex, Abd-El-Kader, sa vie politique et militaire, librairie de Hachette et Cie, Paris 1863, pp. .364.386

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الأمير وجهة نظر الشريعة الإسلامية في زمنه حول المرأة المسلمة عموما، طبقا لتعاليم الشرع الإسلامي، وحيث ظهر سوء الظن بالشريعة والمرأة من لدن الفرنسيين. وقد تبين للفرنسيين تخلف المرأة في نظرهم، وأن المهر الذي يدفعه الرجل كان عبارة عن ثمن مثل شراء بضاعة، واعتقدوا أن المرأة لا تدخل المساجد، وأنها لا تتعلم، وكونها مهملة ومهانة في المجتمع .والجدير بالذكر أن خروج دوماس من إدارة الشؤون العربية في سبتمبر 1847 جاءت نتيجة تخلي بوجوعن منصبه كحاكم عام للجزائر . وأثناء تواجده بفرنسا كلفته بمرافقة الأمير في سجنه بحصن لا مالغ(Lamalgue) ما بين جانفي وأبريل من العام 1848، ليقنعه بالعدول عن فكرة الهجرة إلى بلاد المشرق، وقد ترك بخصوص هذا الأمر سبع رسائل حول حدث ملازمة الأمير في سجنه راسل بها الجنرال ريفات(Rivet) الذي خلفه في منصب إدارة الشؤون العربية في الجزائر[6].والأسئلة التي طرحها **دوماس** تناولت القضايا التالية:[7]

- مسألة تعدد الزوجات، إهانة المرأة بالضرب، كون الخطيب لا يرى خطيبته ولا يحصل تعارف مسبق بينهما.
- اهتمام بنات الأكابر فقط بالتبرج، زواج الرجل العجوز بالبنت الصغيرة.
- لا ينظر الرجل إلى المرأة إلا من جهة الجمال فقط أما الأصل فالاهتمام به قليل، نظرة الرجل لزوجته على أنها خادمة فقط، التستر والتلحف نتيجة الغيرة الزائدة عند المسلمين.
- تزويج البنات قبل البلوغ، كثرة الطلاق عند المسلمين.
- أفضلية الذكر على الأنثى.
- الزواج ومسألة الصداق.
- تعدد الزوجات والجواري.
- ضرب المرأة والمعاملة السيئة.
- دور المرأة في المجتمع وحقها في التعليم .

(5) محمد بن عبد القادر، الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية الإسكندرية، 1903، ص ص 161- 185. وأيضا: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، (شرح وتعليق : ممدوح حقي)، بيروت : دار اليقظة العربية، ط2، 1964.

(6) Reyniers (colonel), « Sept lettres inédites du colonel Daumas au colonel Rivet », In, RA, n° 99, 1955, pp. 181-194.

(7) نفس الأسئلة والانطباعات وردت في دراسة نشرت بالمجلة الأفريقية ينظر:
. Daumas,, La femme arabe, In ,R.A,...Ibid

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

- المرأة ترث أقل من الرجل، عدم التعلم جعل المرأة غير مهذبة وجاهلة، عدم دخول المرأة للمسجد لأداء الصلاة، عدم منع النساء من الحج، القول بأن المرأة لا تدخل الجنة.

في الواقع أن أسئلة **دوماس** توحي بأنه كان لا يجهل بعض الأجوبة، ولكنه كان يثير **الأمير** كي يعطي رأيه بصراحة ويفصل القول ويكشف عن وجهة نظره الخاصة في الموضوع. **فدوماس** عاش في الجزائر طويلا وجمع معلومات غزيرة، واطلع على كتب ووثائق، وخالط غير الأمير، وباشر وظائف إدارية تتعلق بالجزائريين، ولذلك فإن الأسئلة لا تصدر عن جهل وإنما عن محاولة التعميق في المعرفة الحصول على آراء عن طريق الإثارة والاستفزاز ويبدوا أن **الأمير** قد انساق وراء ذلك، وأعطاه أجوبة مفصلة ومحللة بالعقل والنقل.

جاءت إجابة **الأمير عبد القادر** عن واقع الشريعة والفهم الشخصي للأمور إذ كان الأمير من وجوه القوم، ومن رجال الدين والدنيا. كما كان للنساء أدوارا في الحياة السياسة والعسكرية، وقد برزت أثناء حياة الأمير عبد القادر امرأتان: أمه لالة زهرة وزوجته لالة خيرة. كان الأمير كثيرا ما يتشاور ويتبع نصائح أمه، وقيل أنها هي التي نصحت الأمير عبد القادر سنة 1847 بتوقيف الحرب بعد مقتل خليفته البوحميدي في الحرب وفقدان الأمل في الهروب إلى الصحراء، ومحاصرة الفرنسيين لجيشه . يجيب الأمير على أسئلة الجنرال دوماس حول المسائل الشرعية الإسلامية المتعلقة بالمرأة، معتمداً على أقوال العرب ومستشهداً، بالعهد القديم والجديد ليدعم صحة نظرياته. وهومن خلال هذه الأجوبة يقوم بمقارنة حال المرأة في المجتمع المغاربي والمرأة في المجتمع الغربي.

في ذات السياق يلاحظ أن أجوبة الأمير لسائله دوماس كانت تعبيرا صادقا لخصوصيات المرأة في فقه عبد القادر الجزائري. فالحديث عن المرأة معناه أفضلية الذكر على الأنثى ،أي أفضلية الأصل على الفرع، الرجل قوام على المرأة التي هي ضعيفة وتحتاج إلى من يعيلها ويحميها. إن الغيرة وتحريم الإختلاط بين الجنسين والحجاب، هي مسائل نظر إليها الأمير من وجهة نظر عربي مسلم ذي حمية متشددة لا تقبل المناقشة. وفي هذا الصدد يقول أحد الحكماء نصه: (إن كل امة كانت الغيرة في رجالها، كانت الصيانة في نسائها.) [8] وبخصوص مسالة الزواج والصداق والطلاق، فالأمير يحتقر الرجل الذي يتزوج المرأة لأجل مالها، فالمال زائل، وإذا زال المال زالت الأفة والمحبة وبطل الزواج. كما ينفي الأمير عن الصداق تهمة التجارة، فالأمير من أنصار الزواج المبكر للبنت ،لأنه يحصنها ويحصن الرجل من محارم الزنا. وقد أعطى الأمير عبد القادر للمرأة الحق في طلب الطلاق عند اقتضاء الضرورة. إن مسألة تعدد الزوجات التي بينها الله

(8) تحفة الزائر، ص 746.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

في محكم تنزيله :" **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا**" (9) تعد فرض من الله"، جاءت لسلامة الدين والكف عن الزنا. لكن التعدد يرافقه التسوية والمعاملة العادلة بين الزوجات .كما أن الميراث الذي هوقسمة من عند الله، وفيه المفاضلة بين الذكر والأنثى في جعل قسمتين له في مقابل قسمة واحدة للأنثى هوتحصيل حاصل لأهلية الذكر على الأنثى في المشاق، وتحمل المسؤوليات وتولية الأعمال، والمناصب الدينية والدنيوية. وماعدا ذلك فعلى الرجل أن يسوي بين أولاده في العطية.

ثانيا : صورة المرأة عند ابن أبي الضياف(10)

يعد أحمد بن أبي الضياف مؤرخا وسياسيًا وهومن أنصار الوزير والمنظّر الحداثي (خير الدين)، وأحد الكتّاب الذين نظّرُوا للإصلاح السياسيّ، لكنّ مكانته الحقيقية تكمن في عمله بالبلاط الحسينيّ لدى عدد من البايات. وقد تسنّى له أثناء ذلك المشاركة في الأحداث الكبرى التي عاشتها البلاد، فكان سفيرا، ومستشارا، وكاتب سرّ، وكان خاصّة إخباريا ومؤرّخا بفضل ملاحظاته الشخصية، والوثائق الرسمية التي شارك في تحرير عددٍ منها. ولئن عدّ (الاتحاف) أهمّ ما كتبه بوصفه مصدرا أساسا للتاريخ الحسينيّ وخاصّة فترات حكم أحمد باي ومحمّد باي ومحمّد الصادق باي، فللرجل إسهامات فقهيّة وفكريّة، وكتابات نثرية وشعرية، تجعل منه ممثّلا لثقافة عصره بتنوّع مجالاتها وكثرة أزماتها ووجوه الصراع فيها. وفي الجملة، لا يمكن الاستغناء عن

(9) سورة النساء: 3

(10) ينظر الكتب والدراسات التي تناولت حياة أحمد بن أبي الضياف كتاباته وأفكاره:

- الخميري، الطاهر، (تعريف بابن أبي الضياف وتاريخه)، في مجلة الفكر، ع 9، 1960، ص 30-36.
- الشنوفي، المنصف، (رسالة ابن أبي الضياف في المرأة)، في، مجلة حوليات الجامعة التونسية، ع 5، 1968، ص 45-112.
- الشنوفي، المنصف، (أقدم ترجمة لابن أبي الضياف)، في، مجلة حوليات الجامعة التونسية، ع 5، 1968، ص 113-118.
- مزالي، محمد الصالح، من رسائل ابن أبي الضياف، الدار التونسية للنشر، تونس 1969.
- المرزوقي، رياض، (من رسائل ابن أبي الضياف المكتوبة)، مجلة الحياة الثقافية، ع 30، 1979، ص 90-96.
- عبد السلام، أحمد، ابن أبي الضياف، حياته ومنزلته ومنتخبات من آثاره، الدار العربي للكتاب، تونس-ليبيا 1984.
- جدي، أحمد، أحمد بن أبي الضياف، آثاره وتفكيره: محاولة في التاريخ الثقافي، منشورات مؤسسة التميمي زغوان 1996، 542 ص (بالفرنسية).

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

دراسة ابن أبي الضياف لفهم ما عاشته البلاد التونسية منذ احتلال الجزائر (1830م) إلى انتفاضة ابن غذاهم (1864م). (11)

ينحدر أحمد بن أبي الضياف من قبيلة أولاد عون التي يقع مجالها بمنطقة سليانة بالشمال الغربي التونسي، وهي قبيلة حسينية أي أنها ناصرت حسين بن علي وأبناءه في حربهم ضد علي باشا، غير أنها ليست قبيلة مخزنية . وكان والده الحاج بالضياف قدم إلى تونس العاصمة صغيرا واستقر بها، ودرس بجامع الزيتونة، ثم اتخذه المملوك عثمان قايد قفصة كاتبا له وانتقل منه للعمل بصفة رئيس للكتبة لدى الوزير يوسف صاحب الطابع . أما أحمد بن أبي الضياف فهوالابن البكر والولد الوحيد للحاج بالضياف، وقد كان يسكن مع عائلته في ربض باب سويقة. وقد حرص والده على أن يتلقى ابنه تكوينا يؤهله ليحتل وظيفة في دولة البايات. فحفظ القرآن الكريم في كتّاب سيدي بن عروس، ودرس بجامع صاحب الطابع وبالمدرسة التابعة له وبجامع الزيتونة وبمدارس أخرى على أهم مشائخ عصره من أمثال المفتي المالكي إسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي والمفتي الحنفي محمد بيرم الثالث ومحمد بن الخوجة وأحمد الأبي والشيخ محمد بن ملوكة .(12)

يعد أول من كتب للدولة العثمانية باللغة العربية واستمر مشواره في خدمة الدولة لبضعة عقود. وانتقل من كاتب السراية أوكاتب السر لدى عدد من البايات إلى أن سمي وزيرا مع رتبة أمير الأمراء. شارك من موقعه في تحرير المراسلات المختلفة للدولة والتي تهم السياسة الداخلية والخارجية والأوامر العلية، كما أرسل في مهمات بالخارج لدى الباب العالي في عام 1831 ثم في سنة 1842 . كما اصطحب أحمد باشا باي في رحلته إلى باريس في ديسمبر 1846، وتحدث عن هذه الرحلة في كتابه الإتحاف. لكن دوره ما فتئ أن تراجع في عهد محمد باشا باي، وذلك لم يمنعه من أن يكلف بتحرير عهد الأمان عام 1857 . ثم كان عضوا في المجلس الكبير الذي ترأسه خير الدين وبعد استقالة هذا الأخير في عام 1862 تولى عوضا عنه مصطفى خزندار، وسمي ابن أبي الضياف نائبا ثانيا للرئيس . لكن بعد توقف عمل المجلس غداة ثورة علي بن غذاهم عام 1864. تم إبعاده عن الإدارة ليعود عند عودة خير الدين إلى دوائر القرار ليقع إلحاقه في أواسط عام 1870 بأحد أقسام الوزارة الكبرى ثم استقال من منصبه في بداية عام 1872.(13)

(11) الشنوفي، المنصف، " أقدم ترجمة لابن أبي الضياف"، مجلة حوليات الجامعة التونسية، تونس، عدد 5، 1968، ص 113-118.وأيضا : الموسوعة التونسية المفتوحة: أحمد بن أبي الضياف، على الرابط التالي : http://www.mawsouaa.tn

(12) Ahmed Abdessalem, Les historiens tunisiens des XVIIe, XVIIIe et XIXe siècles, essai d'histoire culturelle, Publications de l'Université de Tunis, 1973, pp. 333-339.

(13) Ibid, PP.345-355

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

لا شك أن أهم ما كتبه ابن أبي الضياف هوكتابه الضخم في التاريخ والمعنون بإتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، والذي خصصه لتاريخ تونس إلى عصره. وبالإضافة إلى ذلك فقد حرر ابن أبي الضياف أيضا المراسلات الرسمية لمختلف البايات الذين خدمهم، وكتب بعض القصائد التي جمعها محمد السنوسي في كتابه مجمع الدواوين التونسية. 1971م. كما أجاب ابن أبي الضياف عن واحد وعشرون سؤالا توجه بها إليه عام 1856 القنصل الفرنسي ليون روش(Léon Roches)[14]، وعنوانها حسب المخطوطات: (أسئلة وجّهها عالم فرنساوي وأجاب عنها عالم مسلم)، أو(أسئلة من تلقاء أوروبا وأجوبتها)، ويسمّيها أحمد عبد السلام (الأجوبة الأوروباوية)، وتتضمّن آراء في حال المرأة المسلمة، وردودا على مطاعن الأوروبيين في الاسلام، وقد حقّقها المنصف الشنّوفي ونشرها في حوليات الجامعة التونسية، العدد الخامس، 1968، تحت عنوان رسالة أحمد بن أبي الضياف في المرأة وذلك عام 1968، وهي تتناول في عمومها وضعية المرأة المسلمة، وقد دافع في أجوبته عن وضعية المرأة في الإسلام، من زاوية تتسم في عمومها بالمحافظة .[15]

إن دراسة تاريخ تونس في العهد الحسيني وخاصة في عهد المشيرين الثلاثة أحمد باي(1837-1855) ومحمد باي (1855-1859) والصادق باي (1859-1882) [16] رهينة مصدر ابن أبي الضياف

(14) ليون روش(1809-1901)مستعرب فرنسي، تعلم العربية في الجزائر، لقد مكث بشمال أفريقيا 32 سنة، وعمل قنصلاً لفرنسا في طرابلس الغرب وتونس وطنجة واليابان. كما تولى الترجمة في الإدارة الفرنسية في عهد فالييه (1837-1841) ثم عينه بوجومترجم رئيسي للجيش الإفريقي في الجزائر. دخل في خدمة الأمير عبد القادر في نوفمبر 1837، وأصبح أحد كتابه الخاصين، وأعلن إسلامه. وفي سنة 1839 هرب ورجع إلى قومه بعد أن عرف أسرار الأمير، وأعلن أنه لم يكن مسلما. قام روش برحلة إلى الحجاز خلال 1841-1842 متنكراً في زي حاج مسلم يدعى(عمر بن عبد الله) وذلك بغرض الحصول من علماء الحرمين على الموافقة على نص فتوى شرعية تجعل الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، وضرورة الرضي بحكم الفرنسيين وعدم شرعية مقاومة الأمير. لقد جمع مذكراته ونشرها في باريس سنة 1884 بعنوان: اثنتان وثلاثون سنة في الإسلام.، تحدث في الجزء الأول عن أوضاع الجزائر وحياة الأمير عبد القادر، أما الجزء الثاني فخصصه لمهمته الرحلية إلى الحجاز وحياة المارشال بوجو(Bugeaud). كما نشر نص الفتوى المتعلقة بمنع الجهاد ضد فرنسا في هذا الجزء. عمل روش قنصلا فرنسيا بتونس ما بين (1853-1863)وسفيرا باليابان ما بين 1864-1868).

(15) الشنوفي، المنصف، "رسالة ابن أبي الضياف في المرأة"، مجلة حوليات الجامعة التونسية، تونس ،عدد 5، 1968، ص 49-112.

حاول الباحث التونسي عبد السلام أحمد، تقديم حجج مفادها أن العنوان الأصلي للوثيقة المقدمة من طرف الشنوفي المنصف، هو:" أسئلة من تلقاء أوروبا وأجوبتها للشيخ ابن أبي الضياف بخطه". وأنها تتمة لإتحاف أهل الزمان، وهي رسائل بعثها ابن أبي الضياف إلى خير الدين حين كان في باريس خلال الفترة 1854-1857. ويرجعها على أن تكون الأجوبة هي : الأسئلة من تلقاء أوروبا . وعليه فإن الباحث يستبعد أن يكون ليون روش هوالسائل. ينظر: أحمد، عبد السلام، "مصدر الأسئلة من تلقاء أوروبا" التي أجاب عنها ابن ابي الضياف"، مجلة حوليات الجامعة التونسية، تونس ،عدد 28، 1988، ص 13-18.

(16) برز خلال حكمه عهد الأمان الذي ينص على تحقيق العدل بين الرعية ويؤكد على حقوق الأجانب في المملكة التي ستسمح لهم بالتدخل في الحياة السياسية. كما أصدر خلال عهده أول دستور تونسي بدأ العمل به يوم 26 أبريل 1861 ينص على تنظيم

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. تعد رسالة ابن أبي الضياف المؤرخة في 6 جمادى الأخرة 1272هـ/13 فبراير 1856م، والتي اشتملت على 23 سؤالا، وثيقة مهمة، في تبيان الحركة السلفية في تونس وتنير المواقف حول وضعية المرأة في فكر العلماء المتنورين في تونس خلال القرن التاسع عشر، إذ بين ابن أبي الضياف المسلم المتدين موقفه حول المرأة عند أهل الكتاب . كان ابن أبي الضياف يؤمن بالاجتهاد وقد أوضح ابن أبي الضياف منزلة المرأة المسلمة في الإسلام بتونس زمنئذ. وتدور الأسئلة في الفلك التالي:

1- سرور المسلمين بالمولود الذكر دون الأنثى.
2- منع المرأة من التعليم.
3- زواج المرأة وهي صغيرة السن.
4- فرض الحجاب على المرأة.
5- المهر عبارة عن متاع يشترى.
6- اضرار تعدد الزوجات.
7- ضرب المسلم للمرأة.
8- بطالة المرأة.
9- احتقار المسلم للمرأة.
10- إباحة الطلاق والإكثار منه.
11- الإفراط في الطلاق والتعسف فيه.
12- الإرث: للذكر حظ الأنثيين.
13- مدار المرأة عند المسلمين لجمالها لا لأخلاقها.
14- منعها الصلاة في المسجد.
15- عدم ترخيصهم لها بالحج.
16- تحريم الجنة على النساء.
17- تزويج الصبيات بالشيوخ.
18- عدم إكرام المرأة عند الجنائز.
19- زواج المسلم بالمرأة المعلوم فجورها إذا استوثق بعهدها.
20- طلاق المسلم لزوجته عند تطيره منها.

الحياة السياسية بالفصل بين السلط الثلاث والحد من سلطة الباي الأمر الذي دفع بإلغائه سنة 1864. في سنة 1881، وقع على معاهدة باردو التي تشكل بداية الاستعمار الفرنسي لتونس.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

21- المرأة المسلمة لا تحمل الرجل على القيام بالأعمال الحميدة.

نستشف من فحوى الأسئلة والأجوبة أن ابن أبي الضياف كان موقفه مستنيرا تجاه قضايا المرأة، حيث أوضح لأهل الكتاب موقفه كمسلم متدين يؤمن بالاجتهاد ومنفتح على الحضارات الأخرى في مجال الأسئلة المطروحة.

تطلعنا (رسالة في المرأة) أن ثقافة ابن أبي الضياف الدينية الإسلامية، فقد كان مرشحا لرئاسة الفتوى بالمذهب المالكي لما توفي شيخه سيدي ابراهيم الرياحي سنة 1850، لكنه أثر مصلحة قلمه السياسي .[181]

تشهد كل المصادر على ؟أن ابن الضياف ،كان إماما في المعقول والمنقول، فهوفي هذه الرسالة يدافع الشريعة الإسلامية. فعلى هذا الأساس تنير رسالته عن موقفه المسلم المتدين من أهل الكتاب، فموقفه كله تسامح، فهويستشهد بالتوراة والإنجيل دون المفاضلة بين الأديان الثلاثة، ولا يتهجم على الحضارة الغربية ويقرر في الاعتدال من خلال أجوبته. يقول: (لا حكم إلا للشرع فإن فهم العقل سره شكر الله وان عجز عن ادراك السر فحسبه الامتثال والعمل.)[19]

يخرج ابن أبي الضياف عن الاعتدال عندما يقرر مجيبا لسؤال يتعلق بالتفاوت في الإرث عند المسلمين بين الذكر والأنثى، يقول ما نصه: (فدل هذا أن قسمة المواريث لا مجال للعقل فيها)[20].من أجل كل هذا اتسمت سلفية ابن أبي الضياف بالاعتدال والمحافظة، ويشير الباحث التونسي الشنوفي أن الرسالة التي كتبها ابن أبي الضياف تعد معلما هاما في تاريخ حركة الإصلاح بتونس، فهي تقدم لنا تصور ابن أبي الضياف من التنظيمات والإصلاحات التي شهدتها تونس والتي تكللت بظهور عهد الأمان.[21]

كانت المرأة الجزائرية خلال فترة الاحتلال حاضرة في المقاومة بأفعالها ورموزها. ففي ثورة الزعاطشة (1849) لبست النساء لباس الأعراس والأعياد، وتخلين عن لباس الحزن والحداد وعبرت عن فرحتهن بمن سقطوا من مجاهدين. لقد كانت المرأة حاضرة في المدن والأرياف، ولم تكن تنتظر من الأخوات البيض حاملات الصليب ولا أفكار سان سيمون لتحريرها ولإنقاذها. لقد

181) الشنوفي، المنصف، رسالة...، ص 59.

(19) نفسه، ص 60.

(20) نفسه.

(21) في عهد محمد الصادق باشا باي تونس (1855- 1859م)، وبعد سنتين من توليه الحكم، أصدر قانونا شارك في تحريره المصلح أحمد بن أبي الضياف، عُرِف بقانون "عهد الأمان"(10 سبتمبر 1857) هذا القانون الذي تضمن 11 فصلا، كان موجها إلى جميع سكان تونس مهما كانت دياناتهم وأجناسهم وجنسياتهم، وكان يقرّ حريّة المعتقد، وينصّ على ضمان الأمن في المال والأجساد لكل سكّان الإيالة دون اعتبار الدّين أوالجنس أواللّون، وعلى التساوي بين النّاس في أداء الضرائب، وعلى حقّ الأجانب في شراء الممتلكات والأراضي، وحقّهم في ممارسة المهن والصّنائع والحرف.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

نفتها فرنسا إلى كيان وكاليدونيا رفقة الرجال. كان للنساء أدوارا في الحياة السياسة والعسكرية، وقد برزت أثناء حياة الأمير عبد القادر امرأتان: أمه لالة زهرة وزوجته لالة خيرة، كان الأمير كثيرا ما يتشاور ويتبع نصائح أمه، وقيل أنها هي التي نصحت الأمير عبد القادر سنة 1847 بتوقيف الحرب بعد مقتل خليفته البوحميدي في الحرب وفقدان الأمل في الهروب إلى الصحراء، ومحاصرة الفرنسيين لجيشه.

لقد تراءت لنا قضية المرأة على أشتاتها المتفرقات في أجوبة الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف واضحة الخطوط، بعد أن ضبطنا أهم أسسها وهي مسألة المساواة بين الرجل والمرأة، ومشكلة تعدد الزوجات، وموقف الإسلام من الطلاق، وقضية تعليم المرأة، ومشاركتها في الحياة العامة، والحجاب. لا مناص من الملاحظة أن كلا الرجلين كثيرا ما يسهبان في ذكر فضل الشريعة الإسلامية على المرأة من عدة جوانب. وفي هذا السياق يقر الشيخان أن الإسلام كان بمثابة بر الأمان وسر سعادتها، إذ أعطاها حقوق و شرع الوصية في حقها والإرث مع الرجل. كما زادها ما فرض لها على الرجل من الصداق والنفقة، وأعطاها حق التملك والبيع والشراء، والإجارة والهبة، وخاطبها بالتكليف الديني، وساوى بينها وبين الرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف. فالإسلام حسب ردود الشيخان هومصدر نصرة المرأة وهومصدر كرامتها.

عاشر دوماس وروش الأمير عبد القادر في عاصمته بمعسكر، فالأول كان قنصل فرسا عند الأمير والثاني كان كاتبا وصهرا للأمير، وقد قيد تجاربه في كتابه الشهير : (اثنتان وثلاثون عاما في الإسلام: 1832-1864). كما ربط علاقات وطيدة مع محمد باي تونس (1853-1855)، وصار مستشاره الشخصي، وفي هذه الصدد يقول ابن أبي الضياف ما نصه: " ومن الغد جاء قنصل الفرنسيين ليون روش، وكان خبيراً بأصول الملة الإسلامية." [(22)]

مما يلفت نظر الدارس لأجوبة الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف اهتمامها بقضية المرأة اهتماما يبدومعه شديدة الاتصال بجميع مظاهر المجتمع الإسلامي في عصريهما. فلنا أن نتساءل عن عناصر هذه المسألة كما يراها العالمين حتى نتصرف موقفهما من المرأة وقضايا المجتمع زمنئذ ونزعتهما في ضبط منزلة المرأة المغاربية : الجزائر وتونس خلال الفترة الاستعمارية. يعتبر الشيخان الأمير عبد القادر وابن أبي الضياف أن الرجل والمرأة متساويان ويشتركان في الإنسانية التي هي مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر، والمرأة مقيدة برئاسة الرجل، رئاسة ترجع إلى أسباب اجتماعية ومادية وفطرية.

(22) أحمد بن أبي الضياف، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،(تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية)، تونس: الدار العربية للكتاب، 1999، مجلد 4، ص 236.